العبادة

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
الشؤون الفكرية والثقافية
١٠٧

العبادَة

قسمُ الشُّؤونِ الفِكريَةِ والثَّقافِيَة - شُعبَةُ البُحوثِ والدِّ

١٤٣٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

سورة الذاريات- الآية - ٥٦ .

العبَادة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين ولا سيما بقية الله في الأرضين عجل الله تعالى فرجه وجعلنا من أشياعه وأتباعه والذابين بين يديه.

من الأسئلة الخالدة التي مرت على ذهن البشر هو السؤال الكبير عن غاية الخلق؟ ويتميز ا لجواب الإسلامي عن غيره - وما أكثر هذا الغير - أن الخالق هو الذي يتحدث عن هدف خلقه فيبين أنها حصول الكمال عن طريق عبادته وهي الغاية نفسها من بعثة الأنبياء عليهم السلام وبأعلى درجات العبودية اتصفوا وهي غاية (الاستخلاف الإلهي)، إذ لها دوافع كثيرة وكبيرة وهذه الغاية تحقق وحدة المجتمع الإنساني ومصلحة البشرية في الدنيا والآخرة ومن دونها يسقط في عبودية معبوديات أخرى لا تستحق أن يعبدها بشر وتنتج عكس النتائج السابقة

نسأل الله سبحانه أن يرزقنا عبادته بحق أخلص عباده محمد وآله صلى الله عليه وآله، وصلى الله على محمد وآل محمد

العبَادة

معنى العبادة

للعبـادة معنيان معنى لغوي وهو: «أصل العبودية الخضوع والـذل، والتعبيد: التذليل يقال: طريق معبد والبعير المعبد: المهنـوء بالقطـران المذلل»[1]، ومعنى شـرعي وهـو «العبودية إظهـار التذلـل، والعبـادة أبلـغ منها لأنهـا غايـة التذلل ولا يسـتحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[2]، و«هـذه الآيـة تـدل علـى وجوب عبادة الله تعـالى و تـدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق، وذلك لأن العبادة عبارة عن الفعل المشـتمل على نهاية التعظيـم، ونهايـة التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعـام، ونهايـة الإنعام عبـارة عن إعطـاء الوجـود والحياة، والقدرة والشـهوة والعقل، وقد ثبت بالدلائل أن المعطي لهذه الأشـياء هـو الله تعالى لا غـيره، وإذا كان المنعم بجميع النعم هو الله لا غيره، فلا جرم أن المستحق للعبادة هو الله تعالى لا غيره، فثبت بالدليل العقلي صحة قوله:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[3] [4].

---

(١) الصحاح - الجوهري - ج ٢ - ص ٥٠٣

(٢) المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني - ص ٣١٩

(٣) مفاتيح الغيب، ج٢٠، ص: ٣٢٢

(٤) الاسراء/ ٢٣.

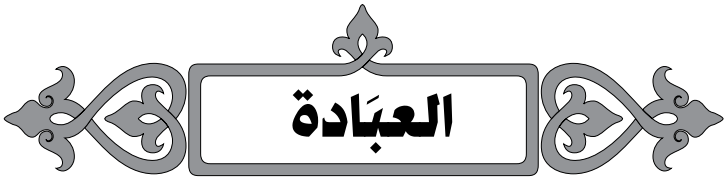

فالعبـادة مركب من جزئين: الأول العمل الذي يُقدم باسـم العبادة، والثاني الاعتقاد بإلوهية من تُقدم له، وهي قسـمان الأول عبادة ليس فيها اختيار وتدخّل تحت هذه العبودية كل ذرات الكون سواء العاقلة أوغيرها فـ

﴿لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾[1].

والمعنـى:« ولله - تعـالى- وحـده يخضع وينقـاد جميع من في السـموات والأرض مـن الملائكـة والإنس وا لجـن وغيرهم. وقولـه «طوعـا وكرها» منصوبان على الحال مـن «مَن»، أي: أن جميعهـم يسـجدون لله، وينقـادون لعظمته، حـال كونهم طائعين وراضين بهذا السجود والانقياد، وحال كونهم كارهين وغـير راضين به، لأنهم لا يسـتطيعون الخروج على حكمه لا في الإيجـاد ولا في الإعـدام ولا في الصحـة ولا في المـرض، ولا في الغنى ولا في الفقر ... فهم خاضعون لأمره شـاءوا أم أبوا. ويسـتوي في هذا الخضوع المؤمن والكافر»[2]، والقسـم الثاني هو العبادة عن اختيار وطواعية وهي عبادة المكلفين من ا لجن والإنس.

---

(١) الرعد/١٥.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ج٧، ص: ٤٦١

العبَادة

تأريخ العبادة

من الملاحظات الهامة في تأريخ البشرية وجود مظاهر العبودية في كل طبقاته، فقد يخلو مجتمع ما وفي فترة من الفترات من مظاهر الفن أو العمارة أو علم الطب أو غيرها من المظاهر التي رافقت البشر منذ فجره الأول، وإن تطورت بمرور الزمن فكانت أرقى وأفضل بفضل تراكم الخبرة البشرية فكل جيل من أجيال البشر يترك كل خبراته إلى الجيل الذي بعده ليستفيد منه ويضيف عليه ليقدمه إلى الجيل الذي بعده، وهكذا تتطور البشرية في حياتها، لكن وجود مظاهر العبودية في كل الأمكنة والأزمنة يدلل على فطرية هذه المسألة فعلامة كون الشيء فطرياً أن يجتمع عليه البشر رغم اختلاف ظروفهم ومكانهم وزمانهم، ويدل أيضاً على مرافقة الوحي للبشر منذ الفجر الأول فلم يترك الله سبحانه عباده سدى بل أرسل إليهم هادين مهديين يهدونهم إلى صراطه المستقيم، وما نجده في آثار الأولين من انحراف عن جادة هذا الصراط هو نتيجة رفض تلك الفطرة والعمل بضدها وترك سنن الهادين واتباع الضالين المضلين وغير ذلك من العوامل التي أدت إلى انحراف الناس عن العبادة الحقة، أما إذا رجعنا إلى القرآن الكريم فنجد أن الميثاق أخذ على ربوبية الله سبحانه قبل هذه النشأة بقوله تعالى:

العبَادة

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١)

والمعنى: «اذكر أيها الرسول محمد للناس جميعا ما أخذه الله تعالى على البشر كافة من ميثاق في بدء الخلق، يتضمن الاعتراف على أنفسهم أن الله ربهم ومالكهم و أنه لا إله إلا الله، وذلك حين خلق آدم وأخذ من ظهور ذريته ذريتهم في عالم الذر، وأحياهم، وجعل لهم عقلا وإدراكا كنملة سليمان عليه السلام، وأخذ عليهم العهد أو الميثاق بأنه ربهم وأنه لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكرة وداعية، وشهد بعضهم على بعض، قائلا لهم قول إرادة وتكوين، لا قول وحي و تبليغ: ألست بربكم؟ فقالوا بلسان الحال، لا بلسان المقال: بلى أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة، لا إله غيرك.

وإشهاد الناس بعضهم على بعض في ذلك العالم -عالم الذر- سببه: ألا يعتذروا يوم القيامة إذا أشركوا قائلين: إنا كنا عن التوحيد غافلين، أي لم ينبهنا إليه أحد، فلا عذر لكم بعد إقامة الأدلة على وحدانية الله، ووجود العقل، وتكوين الفطرة»(٢)، وهذا الميثاق يعني الالتزام بعبادة الله والاجتناب

---

(١) الأعراف / ١٧٢.

(٢) تفسير الوسيط «الزحيلي»، ج١، ص: ٧٥٠

عن عبادة الشيطان فإن كل أحد يخرج من العبادة الحقة فهو يسقط يقيناً بعبادة باطلة وهذا الأمر شامل لجيمع البشر لقوله تعالى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١).

أي «ألم أوصكم وآمركم وأتقدم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم أن لا تطيعوا الشيطان فيما يوسوس به إليكم من معصيتي ومخالفة أمري، فإن الشيطان ظاهر العداوة لكم، بدءًا من أبيكم آدم عليه السلام.

وبعد النهي عن عبادة غير الله أمر تعالى بعبادته، فقال:
﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

أي: وأن وحّدوني وأطيعوني فيما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، وهذا المأمور به والمنهي عنه هو الطريق المعتدل القويم، وهو دين الإسلام» (٢).

فالذي لايعبد الله سبحانه وهو مستحق للعبادة وولي عباده رحيم بهم سيسقط حتماً بعبادة الشيطان وهو العدو الظاهر العدواة، وهل رأيت عدواً يريد بعدوه خيراً؟

---

(١) يس/٦١.

(٢) التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج، ج٢٣، ص: ٣٨

العبَادة

غاية الخلق

من الأسـئلة الخالدة التي مرت في أذهان البشـر سؤال وهو: ما الهدف والغاية من الخلق بعد الفراغ من مسألة أن الفعل الخالـي منهما يعد عبثاً فـإذا أردنا أن ننزه الخالق من العبث فـلا بد من وجود غاية لهذا الخلق وقـد اختار بعض المذاهب الإسـلامية القـول بأن أفعـال الله سـبحانه لا تعلل بالغرض لأنـه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ومعنـى هدفيـة الخلـق بزعمهـم أن الفعل يسد نقصاً موجوداً في الفاعل، ولكي ننزه الله سبحانه عـن ذلك ننفـي الهدفية في الخلق، ويرد علـى هؤلاء أن الآية الكريمة ليست بصدد نفي الهدف عن أفعال الله تعالى لكنها بصـدد أنـه سـبحانه ليس هنـاك من له سـلطة عليـه حتى يسـأله عـن فعله وكم فـرق بين المعنيـين، ولعـل المعنى الأدق للآيـة الكريمـة إن الله لا يسـأل عن غاية فعلـه وإن خفي عنا وجه الحكمة فيه، لأنه حكيم لا يفعل إلا ما به حكمة ويشهد لذلك الأهداف التي ذكرت في القرآن الكريم ومنها:

الأول: العلم والمعرفة بالله

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١)

(١) الطلاق/١٢.

فجعل هدف الخلق هو العلم بقدرة الله الواسعة وعلمه الواسع فقوله سبحانه «لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّه عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ متعلق- بخلق- أو- بيتنزل- أو بمضمر يعمهما أي فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر قادر على كل شيء، وقيل: التقدير أخبرتكم أو أعلمتكم بذلك لتعلموا، وقرئ - ليعلموا- بياء الغيبة. وَأَنَّ اللَّه قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً لاستحالة صدور هذه الأفاعيل ممن ليس كذلك»[1].

الثاني: امتحان الإنسان وتمحيصه

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2]

فالامتحان والبلاء «هي الغاية من خلق الإنسان في ما توحيه كلمة خلق السماوات والأرض، أو تتضمنه من خلق إنسان في نطاق ذلك، وتحديد خط السير له في ما يريده الله، من عمارة الأرض على حسب ما خطّطه الله، لتكون الحركة المتنوعة موضع اختبار وابتلاء وامتحان له، في طاعة الله في ما أمره به، أو نهاه عنه، وفي معصيته له، وليدفع الناس إلى التسابق في العمل الأفضل، والكلمة الأحسن، والخلق الأرحب، والفكر الأعمق، والنتائج الفضلى»[3].

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج١٤، ص: ٣٤١.

(٢) هود/٧.

(٣) تفسير من وحي القرآن، ج١٢، ص: ٢٠.

الثالث: العبادة

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

فـ«إن الحكيم لا يفعل فعلا إلا لحكمة وعائدة، راجعة إليه إن كان مستكملا لنفسه كسائر الخلق، أم إلى غيره إن كان مكملا له دون أن يعود إليه، لكماله وغناه كما الله، وهكذا تكون أفعال الله تعالى فإنه الغني المفيض، والخلق فقراء يفاض عليهم. وعبادة الجن والإنس لله تعالى، فائدة عائدة إليهم لا إلى الله، وإن كانت غرضا لخلقهم مقصودا، وكما توحي به «ليعبدون»: أن لخلقهم غرضا هو أن يعبدوا، فالخلق منه تعالى، والعبادة منهم، فعائدة إليهم، فلم يقل «لأُعْبَدَ» كيلا يظن أنه هو المقصود من خلقهم، أن يصبح معبودا لهم كما كان معبودا لسواهم، فليس لله تعالى نصيب من عبادتهم»[2].

الرابع: نيل واستحقاق الرحمة الإلهية

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[3]

---

(١) الذاريات/٥٦.

(٢) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج٢٧، ص: ٣٤٦

(٣) هود/ ١١٨-١١٩.

«وَلِذلِكَ أي للرحمة خَلَقَهُمْ، فقد خلقهم الله سبحانه حتى يرحمهم، لكن قسما منهم أبوا وتخلّفوا وعصوا، كما أن مَنْ أسَّسَ مدرسة إنما يؤسسها لتعليم الناس وهدايتهم، فإذا أعرض البعض كان من عنده، لا من عند مَن أسَّسَ المدرسة»[1].

ولا تنافي بين هذه الأهداف بل بينهما تكامل فبعضها يؤدي إلى بعض فإن «تدقيقا بسيطا في هذه الآيات يرينا أنّ بعضها مقدّمة للبعض الآخر، فالعلم والمعرفة مقدّمة للعبودية، والعبادة هي الأخرى مقدّمة للامتحان وتكامل الإنسان، وهذا مقدّمة للاستفادة من رحمة الله»[2].

رسالات الأنبياء

تشترك الرسالات الإلهية بقواسم مشتركة وأهم تلك القواسم هي أن كلهم بعثوا للدعوة إلى عبادة الله سبحانه ونبذ كل معبود سواه يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[3]

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان، ج٢، ص: ٦٥٨.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ٤٣٥.

(٣) النحل /٣٦.

وهـذه العبادة وذلك الاجتنـاب «هو بيان لهذا البلاغ المبين الـذي بلّغـه رسـل الله إلى أقوامهـم.. ففـي كل أمـة بعث الله سـبحانه وتعالى رسـولا يدعوهم إلى عبادة الله، وإلى اجتناب الطاغوت»[1]، والطاغوت هو كل معبود سـوى الله سبحانه ولا فرق بين أن يكون ذلك صنماً أو عبداً صالحاً نبياً أو غيره فلا يصح لنبي أو صا لح أن يدعو لعبادة غير الله

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[2]

أي«مـا كان لبشـر أن يسـتنبئه الله ثم يأمر النـاس بعبادة نفسـه، ويأمـر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابـا، ومثال ذلك أن تقول: ما كان لمحمد أن أُكرّمه، ثم يهينني ويسـتخفّ بي، وقد نقل عن مشـركي العـرب عبادة الملائكة «وقالـت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله» فجاء الإسلام فبين أن هذا مخالف لما جاء به الأنبياء من الأمر بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له والنهي عن عبادة غيره، ومن ثم قال:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، ج٧، ص: ٢٩٦.

(٢) ال عمران٧٩-٨٠.

العبَادة

﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

أي أيأمركم بعبادة الملائكة والسجود للأنبياء بعد توحيدهم لله والإخلاص له، إذ لو فعل ذلك لكفر، ونزعت منه النبوة والإيمان، ومن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يكون أعلم الناس بالله، فإن الله لا يؤتى وحيه إلا نفوسا طاهرة، وأرواحا طيبة، فلا تجتمع نبوة ودعاء إلى عبادة غير الله. وأثر عن علي كرم الله وجهه أنه قال: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسّك، لأن العالم ينفّر الناس عن العلم بتهتكه، وا لجاهل يرغّب الناس في ا لجهل بتنسكه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعوذ بالله من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع»[1]، و قد حدث الشيخ الكليني رضي الله عنه عن «عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد، عن الحسن بن محبوب، عن أبي حمزة ثابت بن دينار الثمالي وأبو منصور، عن أبي الربيع قال: حججنا مع أبي جعفر عليه السلام في السنة التي حج فيها هشام بن عبد الملك وكان معه نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب فنظر نافع إلى أبي جعفر عليه السلام في ركن البيت وقد اجتمع عليه الناس فقال نافع: يا أمير المؤمنين من هذا الذي قد تداك عليه الناس؟ فقال: هذا نبي أهل الكوفة هذا محمد بن علي، فقال: أشهد لآتينه فلأسألنه عن مسائل لا يجيبني فيها إلا نبي أو ابن نبي أو

(١) تفسير المراغي، ج٣، ص: ١٩٨.

وصي نبي، قال: فاذهب إليه وسله لعلك تخجله، فجاء نافع حتى اتكأ على الناس ثم أشرف على أبي جعفر عليه السلام فقال: يا محمد بن علي إني قرأت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وقد عرفت حلالها وحرامها وقد جئت أسألك عن مسائل لا يجيب فيها إلا نبي أو وصي نبي أو ابن نبي، قال: فرفع أبو جعفر عليه السلام رأسه فقال: سل عما بدا لك، فقال: أخبرني كم بين عيسى وبين محمد صلى الله عليه وآله من سنة قال: أخبرك بقولي أو بقولك؟ قال: أخبرني بالقولين جميعا، قال: أما في قولي فخمسمائة سنة وأما في قولك فستمائة سنة قال: فأخبرني عن قول الله عز وجل لنبية:

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾

من الذي سأل محمد صلى الله عليه وآله وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة؟ قال: فتلا أبو جعفر عليه السلام هذه الآية:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾

فكان من الآيات التي أراها الله تبارك وتعالى محمدا صلى الله عليه وآله حيث أسرى به إلى بيت المقدس أن حشر الله عز ذكره الأولين

والآخرين من النبيين والمرسلين ثم أمر جبرئيل عليه السلام فأذن شفعا وأقام شفعا وقال في أذانه: حي على خير العمل، ثم تقدم محمد صلى الله عليه وآله فصلى بالقوم فلما انصرف قال لهم: على ما تشهدون وما كنتم تعبدون؟ قالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك رسول الله، أخذ على ذلك عهودنا ومواثيقنا، فقال نافع: صدقت يا أبا جعفر»[1]، ولذلك صار الالتفاف على عبادة الله سبحانه سبباً كافيا للدعوة لأجل الوحدة والاتحاد بين أغلب البشر قال تعالى:

﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2]

فالنداء لجميع أهل الرسالات السماوية «إنّكم جميعا ترون التوحيد مشتركا، فتعالوا نضع يدا بيد لنحيي هذا المبدأ المشترك بدون لفّ أو دوران، ونتجنّب كلّ تفسير يؤدّي إلى الشرك والابتعاد عن التوحيد. والملفت للنظر أن الآية الشريفة تؤكّد موضوع التوحيد في ثلاث تعابير مختلفة، فأوّلا ذكرت أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا الله وفي الجملة الثانية وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وفي المرّة الثالثة قالت وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً

(١) الكافي الشيخ الكليني ج ٨ / ١٢١ .

(٢) آل عمران/ ٦٤.

مِـنْ دُونِ الله. ولعـلّ في هـذه الجملة الأخيرة إشـارة إلى أحد موضوعـين: «الأوّل»: أنّـه لا يجـوز تأليـه المسـيح، وهو بشـر مثلنـا ومـن أبنـاء نوعنا. «والثانـي»: أنّه لا يجـوز الاعتراف بالعلماء المنحرفين الذين يستغلّون مكانتهم ويغيّرون حلال الله وحرامـه كيفما يحلو لهم، ولا يجوز اتّباع هؤلاء. ويتّضح ممّا سـبق مـن الآيات القرآنية أنّه كان هنـاك بين علماء أهل الكتـاب جماعات يحرّفون أحكام الله بحسـب «مصالحهم» أو «تعصّبهـم» إنّ الإسـلام يرى أنّ مـن يتّبع أمثـال هؤلاء دون قيد أو شـرط وهو يعلم بهم، إنّما هو يعبدهم بالمعنى الواسع لكلمـة العبـادة. إنّ سـبب هذا الحكـم واضح، فـإن حقّ وضع القوانين والتشـريعات يعود إلى الله، فـإذا قرّر أحد هذا الحقّ لغير الله فقد أشرك»[1].

والأحـرى بالأمـة الإسـلامية أن تجعل محـور وحدتها هو عبادة الله سبحانه وتعالى، وقد اتفق أكثر المسلمين على ذلك إلا شـرذمة قليلة شـذت عن إجماع الأمة فجعلت هذا المحور الوحـدوي محـوراً للفرقـة والتكفـير، فكفّـرت كل المسـلمين واتهمتهم بعبادة غير الله والسبب في ذلك عدم فهمهم للعبادة والـتي تسـتبطن الاعـتراف بإلوهيـة مـن تقدم لـه الخضوع والطاعة لامطلق الخضوع والطاعة.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ٥٣٨.

العبَادة

توحيد العبادة

تجتمع الرسل عليهم السلام على الدعوة إلى توحيد العبادة فرسالة نوح عليه السلام:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١)

أي «أرسلنا نوحا إلى قومه، فقال لهم ما قاله كل نبي: يا قوم اعبدوا الله وحده، فإنكم ليس لكم إله سواه، فهو الذي خلقكم، وهو الذي رزقكم وهو الذي يحييكم وهو الذي يميتكم، وكل معبود غيره - سبحانه- فهو باطل وفي ندائهم بقوله: يا قَوْمِ تلطف في الخطاب، ليستميلهم إلى دعوته، فكأنه يقول لهم: أنتم أهلي وعشيرتي يسرني ما يسركم، ويؤذيني ما يؤذيكم، فاقبلوا دعوتي، لأني لكم ناصح أمين وقوله: أَ فَلا تَتَّقُونَ تحذير لهم من الإصرار على شركهم، بعد ترغيبهم في عبادة الله- تعالى- وحده بألطف أسلوب، أي: أفلا تتقون الله- تعالى- وتخافون عقوبته، بسبب عبادتكم لغيره، مع أنه- سبحانه- هو الذي خلقكم فالاستفهام للإنكار والتوبيخ»(٢).

---

(١) المؤمنون - الآية -٢٣ .

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ج١٠، ص: ٢٥.

ورسالةَ إبراهيم عليه السلام

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١)

فـ«لقد دعاهم دعوة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها و لا غموض وهي مرتبة في عرضها ترتيبا دقيقا يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوات، لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التي يدعوهم إليها:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾

ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إليهم، وما تتضمنه من الخير لهم، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير:

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

وفي هذا التعقيب ما يحفزهم إلى نفي الجهل عنهم، واختيار الخير لأنفسهم وهو في الوقت ذاته حقيقة عميقة لا مجرد تهييج خطابي!» (٢)

---

(١) العنكبوت - الآية - ١٦ .

(٢) في ظلال القرآن، ج٥، ص: ٢٧٢ .

ورسالة هود:

﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١)

ورسالة صالح عليه السلام:

﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (٢).

ورسالة شعيب عليه السلام:

﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (٣).

ورسالة موسى عليه السلام وحي الله إليه:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (٤)

وَرسالة الْمَسِيحُ عليه السلام:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (٥)

---

(١) الأعراف - الآية – ٦٥.

(٢) هود - الآية – ٦١.

(٣) الأعراف - الآية – ٨٥.

(٤) طه - الآية – ١٤.

(٥) المائدة - الآية – ٧٢ .

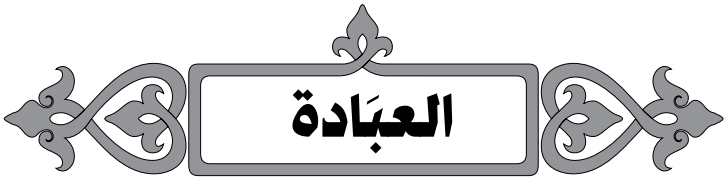

وينقل لنا القرآن شهادته يوم القيامة أمام ربه:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (١)

ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ:

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (٢)

وكرر ذلك في كثير من المواضع منها:

﴿اعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ (٣)

ومنها:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ (٤)

فقبل أي أمر ببر الوالدين أو صلة الرحم أو الاحسان الى الجار أو الصدق في القول والفعل أو الوفاء بالوعد أو غير ذلك من الأوامر الكثيرة يتصدر الأمر بالعبادة وفي كل الأوامر الإلهية الأخرى وفي خطوة لاحقة يجعل كل أعمال البر جزءاً منها.

(١) المائدة - الآية – ١١٧.

(٢) هود - الآية – ٢.

(٣) النساء - الآية – ٣٦ .

(٤) الإسراء - الآية – ٢٣.

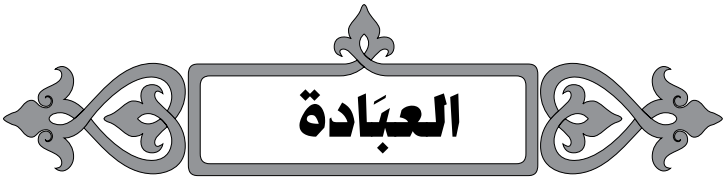

وسام العبودية

من الأوصاف المشتركة للأنبياء عليهم السلام أنهم يسارعون إلى ما يدعون قومهم إليه فإذا كانوا جميعاً كما أسلفنا يدعون إلى عبادة الله سبحانه ونبذ عبادة غيره فهم عليهم السلام أول المسارعين إلى ذلك بل أن ذلك مصدر فخرهم واعتزازهم فهذا شيخ الأنبياء نوح عليه السلام يصفه المولى سبحانه:

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (١).

ويؤكد صادق العترة عليهم السلام أن مقامات إبراهيم عليه السلام ابتدأت بالعبودية فقال:«إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبدا قبل أن يتخذه نبيا وإن الله اتخذه نبيا قبل أن يتخذه، رسولا وإن الله اتخذه رسولا قبل أن يتخذه خليلا وإن الله اتخذه خليلا قبل أن يجعله إماما، فلما جمع له الأشياء قال: إني جاعلك للناس إماما قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ومن ذريتي، قال: لا ينال عهدي الظالمين قال: لا يكون السفيه إمام التقي»(٢)، وقد وصف بهذا الوسام كل من ذكر من الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم تقريباً فإبراهيم عليه السلام عبد وإسحاق عليه السلام عبد وإسماعيل عليه السلام عبد وأيوب عليه السلام عبد وداود عليه السلام عبد وسليمان عليه السلام عبد وكل الذين قبلهم وكل الذين

(١) الإسراء/ ٣.

(٢) الكافي الشيخ الكليني ج ١ / ١٧٦ .

بعدهـم هم عباد والظاهـرة الملفتة للنظـر أن القرآن الكريم إذا أطلـق كلمة «عبد» من دون تقييدها بشـيء انصرف ذلك إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في إشارة واضحة إلى اتصافه بقمـة العبودية ممـا يعني قمة القرب الإلهـي مما يعني قمة الكمال الإنسـاني ففي أول سـورة الإسـراء يتحدث المولى عن إسرائه بعبده من دون تسمية من هو هذا العبد، وفي أول سورة الفرقان يخبر المولى بنزول الفرقان على عبده مقدمة لنذارة العالمين وفي أول الكهف:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ (١)

«و لمـاذا (على عبده) لا محمد ولا الرسـول؟ لعلّه للتدليل على الشـرط الأصيل في ذلك الإنزال والتنزيل وهو العبودية القمـة، فبإنـزال الكتـاب علـى عبـده تحصـل الرسـالة!. ثم و(عبـده) مفردا كأنـه هو عبده لا سـواه، دون عبد من عباده؟ تلميحا لأنه في قمة العبودية، لا يساوى ولا يسامى

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ .

فمحمد ﷺ (عبده) كأنه فقط لا سواه، فلا نجد (عبده) في أشـرف المواقف إلّا إياه ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْـدِهِ ﷺ، ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ﴿أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ

(١) الكهف/١..

عَبْدَهُ اللهم إلّا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا﴾ ولكن (زكريا) هنا تبين أنه لولاه لما عرف بـ(عبده)[1]، وقد وصف أهل بيته عليهم السلام بذلك أيضاً فقال في جزائهم وبيان سبب استحقاقهم لذلك ا لجزاء:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[2].

وهذا يدل دلالة واضحة على اتصافهم عليهم السلام بهذه الصفة وقيامهم خير قيام بلوازم العبودية كما يقتضيه سياق المدح الموجود في سورة الدهر المباركة، أما سيرتهم المباركة فيكفينا شاهد واحد هو قول عامر الشعبي «تكلم أمير المؤمنين عليه السلام بتسع كلمات ارتجلهن ارتجالا فقأن عيون البلاغة، وأيتمن جواهر الحكمة، وقطعن جميع الأنام عن اللحاق بواحدة منهن ثلاث منها في المناجاة، و ثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب، فأما اللاتي في المناجاة فقال: إلهي كفى بي عزا أن أكون لك عبدا، وكفى بي فخرا أن تكون لي ربا، أنت كما أحب فاجعلني كما تحب، وأما اللاتي في الحكمة فقال: قيمة كل امرىء ما يحسنه، وما هلك امرؤ عرف قدره، والمرء مخبوء تحت لسانه، واللاتي في الأدب فقال: امنن على من

(١) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج١٨، ص: ١٠

(٢) الإنسان/٥-٦.

شـئت تكن أميره، واحتج إلى من شـئت تكن أسـيره، واسـتغن عمن شئت تكن نظيره»[1].

فمنتهى العز أن يكون الإنسان عبداً ومنتهى الفخر أن يكون الله سبحانه هو الرب فياله من عز وفخر ضيعه أكثر الناس.

دواعي العبادة

العبـادة فعـل اختيـاري ودليلـه الوجـدان، فإنا نجـد كثيراً مـن الناس تركوا العبـادة وقليلاً منهم التزمـوا بها مما يدل علـى كونهـا أمـراً اختيارياً لكـن لابد لكل فعـل اختياري من دافع يدفع الفاعل إلى تحققه بالخارج ونستطيع حصر ذلك بالعوامل الآتية:

١- أن يكـون الداعـي للعبادة هو الطمع في نعيم الجنة وهو بيد الله سبحانه:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وهذا وعد من الله تعالى في هذه الآية لمن «صدقوا بوحدانية الله وأقـروا بنبـوة نبيه محمد ﷺ وعملـوا الصالحات أن لهم

(١) بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٧٤/٤٠١

(٢) المائدة/٩.

مغفـرة ووعدهم مغفرة ووقعت الجملـة موقع المفرد كما قال الشاعر:

وجدنا الصالحين لهم جزاء وجنات وعيناً سلسـبيلا

وتكـون الجملـة التي هـي لهم مغفـرة في موضـع النصب، ولذلـك عطف في البيت وعينا، فنصب على الموضع، ويحتمل أن يكـون موضـع «لهـم مغفـرة» في موضـع الرفـع، و يكـون الموعـود به محذوفاً، ويكـون التقدير لهم مغفرة وأجر عظيم فيمـا وعدهم أو لهم مغفرة وأجر عظيـم هو الجنة»[1]، وهذا الدافـع يدفـع الكثيرين للعبادة خاصـة إذا علمنا أن عرضها السـموات والأرض وفيهـا مـا لا عـين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٢- أن يكـون الداعـي للعبـادة هـو الخـوف مـن نـار جهنـم - ودخولهـا وعدمـه بيـد الله سـبحانه - فقـد وصـف عبـادة الصالحين بـ:

﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾[2].

فهم«يتحركـون علـى أسـاس هاجس الخوف الذي يشـمل كل كيانهـم حتى ليهتز تحت تأثـير ذكره في ما كانوا يعرفونه

(١) التبيان في تفسير القرآن، ج٣، ص: ٤٦٢.

(٢) الانسان/٧.

من شرّ ذلك اليوم الذي كان فاشيا منتشرا ذاهبا في الجهات، بالغا أقصى المبالغ، وقد سمي العذاب شرّا لأنه لا خير فيه للناس الذين ينالهم العقاب، ولذلك فإنهم يعملون على الابتعاد عن دائرة التقصير في طاعة الله، لشعورهم بضخامة المسؤولية، وثقل التبعة، وعظمة النتائج السلبية في الدار الآخرة»[1].

٣- «أن يعبد الله بما أنه أهل لأن يعبد، فإن الكامل بالذات والجامع لصفات الجمال والجلال، وهذا القسم من العبادة لا يتحقق إلا ممن اندكت نفسيته فلم ير لذاته إنية إزاء خالقه، ليقصد بها خيرا، أو يحذر لها من عقوبة، وإنما ينظر إلى صانعه وموجده ولا يتوجه إلا إليه، وهذه مرتبة لا يسعنا التصديق ببلوغها لغير المعصومين عليهم السلام الذين أخلصوا لله أنفسهم فهم المخلصون الذين لا يستطيع الشيطان أن يقترب من أحدهم:

﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2]

قال أمير المؤمنين وسيد الموحدين عليه السلام: «ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك، ولكن وجدتك أهلا للعبادة

(١) تفسير من وحي القرآن، ج٢٣، ص: ٢٧٠.

(٢) الحجر ٣٩ – ٤٠.

فعبدتك»[1]»[2].

وهـذا الدافـع الثالث فهـو للخُلّص من عباد الله أما سـائر العباد فيسـوقهم إلى العبادة أحـد الدافعين الأولين «الطمع والخـوف» وهذا يكفي وإن كان الدافع الثالث أرقى لكنه بعيد المنـال أو متعذر على أغلب المكلفين فإن كان واجباً فيكون من التكليف بغير المقدور وهو من القبائح التي ينزه الله سبحانه من الاتصاف بها وإلى هذه الحقيقة أشار الإمام الصادق عليه السلام «إن العبـاد ثلاثـة قوم عبدوا الله عز وجل خوفا فتلك عبادة العبيـد وقـوم عبـدوا الله تبـارك وتعالى طلب الثـواب، فتلك عبـادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عز وجل حبا له، فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة»[3].

شمولية العبادة

لم يقتصـر مفهوم العبادة في الإسـلام علـى الصلوات التي تؤدى في المسـاجد أو بعض الشعائر التي تُقدم والغرض منها تعظيـم المولى سـبحانه، بل يمتد مفهوم العبـادة ليغطي كل المسـاحات ليشـمل كل النشـاطات البشـرية فـ«ا لجهاد عبادة

(١) مرآة العقول - باب النية ج ٢ ص ١٠١/.

(٢) - البيان في تفسير القرآن السيد الخوئي / ٤٧٨.

(٣) الكافي الشيخ الكليني ج ٢ /٨٥ .

وهو نشاط اجتماعي، والزكاة عبادة وهي نشاط اجتماعي مالي، والخمس عبادة وهو نشاط اجتماعي مالي أيضا، والصيام عبادة، وهو نظام غذائي، والوضوء والغسل عبادتان وهما لونان من تنظيف ا لجسد، وهذا الشمول في العبادة يعبر عن اتجاه عام في التربية الإسلامية يستهدف أن يربط الإنسان في كل أعماله ونشاطاته بالله تعالى، ويحول كل ما يقوم به من جهد صا لح إلى عبادة مهما كان حقله ونوعه، ومن أجل إيجاد الأساس الثابت لهذا الاتجاه وزعت العبادات الثابتة على الحقول المختلفة للنشاط الإنساني، تمهيدا إلى تمرين الإنسان على أن يسبغ روح العبادة على كل نشاطاته الصالحة، وروح المسجد على مكان عمله في المزرع أو المصنع أو المتجر أو المكتب، ما دام يعمل عملا صالحا من أجل الله سبحانه وتعالى»[1].

الخاتمة

ما دامت العبادة هي الغاية من خلق الخلق وهي الغرض من رسالات الرسل والأنبياء عليهم السلام وا لمحور الذي تدور عليه وحدة الأمة الإسلامية بل جميع الأمم وبما أنها وسام اتشح به كل الأنبياء والمرسلين وأتباعهم وما دامت الدوافع إلى العبادة

(١) الفتاوى الواضحة - السيد محمد باقر الصدر قدس سره- ص – ٥٩٩.

العبَادة

موجـودة عنـد كل الناس، فمَـن مِن الناس لا يخـاف العذاب الأليـم أو يطمـع في جنة الخلد إذ لم يسـتطيع الإنسـان إلى عبـادة الأحـرار لأن أهلها قليل فيجب على العاقل أن يسـعى سـعياً حثيثاً للعبـادة خاصة أن من يترك عبادة الله يسـقط في عبـادة غـيره من هوى أو نفس أمارة بالسـوء أو الشـيطان أو غيرها مما لا يسـتحق العبادة لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا حياة ولا نشورا ومن وصايا الرسول الأكرم ﷺ: «اعبد الله كأنـك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وقد حدد صلوات الله عليـه أعبد الناس بقولـه: «من أتى الله بما افترض الله عليه فهو من أعبد الناس».

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لذلك بحق محمد وآله الطيبين الطاهرين وصلى الله على نبيه وأهل بيته الكرام.

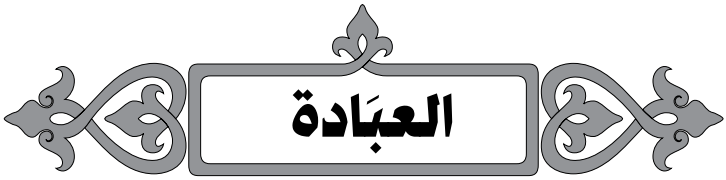

الفهرس

المقدمة.....٣

معنى العبادة.....٤

تأريخ العبادة.....٦

غاية الخلق.....٩

رسالات الأنبياء.....١٢

توحيد العبادة.....١٨

وسام العبودية.....٢٢

دواعي العبادة.....٢٥

شمولية العبادة.....٢٨

الخاتمة.....٢٩

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
زورونا www.aljawadain.org
الشؤون الفكرية والثقافية
راسلونا fikriya@aljawadain.org